منهج ابن رشيق في تقديم شعراء أنموذجه

د. أحمد موساوي
جامعة ورقلة

يعد الدّارسون كتاب "أنموذج الزّمان في شعراء القيروان" لابن رشيق أجمل وأشمل كتاب ترجم لشعراء إفريقية، وقد كان الغرض من إنجاز هذا العمل هو تدارك النقص الملحوظ في هذا النوع من كتب الطبقات الذي توفّر العديد منها في المشرق للقدماء والمحدثين،(1) إضافة إلى رغبة المؤلّف في الردّ على الشاعر أبا إسحاق ابراهيم الحصري –أحد معاصريه– والذي انتقده ابن رشيق حينما أراد تصنيف الشعراء بناء اً على السن وهو أصغرهم، فسارع إلى إنجاز كتابه مخالفا أسلوب الحصري.

وإذا كان ابن رشيق قد سارع إلى تدارك بعض النقص في الواقع الثقافي المغاربي فإن جهدنا المتواضع هذا يسعى إلى التذكير بأن هذا العلم المغربي لم ينتج العمدة في نقد الشعر فقط بل له أعمال أخرى يمكن الالتفات إليها واستثمارها والخروج ببعض الإفادات والإضاءات لبعض القضايا الأدبية والنقدية.

إنّ أبا الحسن بن رشيق الم سيلي المولد (390هـ)، الذي احتضنته القيروان وكانت له قبلة علمية فتحت له صدرها ورعاه فيها علماؤها وأدباؤها، قدم لها الكثير و ظهرت آثار ذلك واضحة في كتاباته اللغوية والنقدية.(2)

فظهر أنموذجه في تلك الحاضرة المتوهجة فكرا وعلما وأدبا فترجم من خلاله لمعاصريه المتواجدين بكثرة في بلاط المعز بن باديس بالقيروان، وقد بلغوا مائة شاعر اغتنم فرصة لقائهم به ومراسلاتهم له وجمع الكثير من قصائدهم في كتابه.

وقبل الحديث عن الفقرات الأولى التي اختارها الشاعر كمقدمات للتعريف بشعرائه وطريقة بنائها وأسلوبه فيها والتي هي موضوع المداخلة قبل ذلك كله نقف عند العنوان:

فالأنموذج أو النموذج يقصد به المثال الذي يقتدى به أو يعمل عليه الشيء و يعد القرآن الكريم أنموذج الكلام المبين ، و الشيء النموذجي هو الذي يضرب به المثل(3) .

فالأنموذج من خلال ما تقدم يدل على أنّ ما سيقدمه ابن رشيق هو من أفضل وأحسن ما أنتجه شعراء القيروان وهو نتاج ارتقى بالشعر إلى مستوى الحضارة التي ينتمي إليها والتمدن الذي عرفته تلك الحاضرة،(4) ومن خلال تلك المقدمات يمكننا الوقوف على عدة مستويات لجوانب التحضر والرقي الثقافي والاجتماعي.

وإن كان هذا الكتاب في عمومه قد شمل شعراء مختلفين تم ترتيبهم عشوائيا دون أي تدقيق أو اختيار، بل بني الترتيب على ذوق الكاتب وارتكز على ذاكرته فقط، فالكاتب ترجم للقريبين منه والذين حفظ اشعارهم إضافة إلى من راسلوه.

ولكن هذا كله لن يؤثر في توجّهنا نحو الكشف عن أسلوبه ومنهج الكاتب الذي قدم شعراء، وعرف بهم من جوانب متعددة كسيرة الشاعر وحياته وأخلاقه وطبيعة فنّه، وذاك ما ساعد على إعطاء صورة تكاد تكون متكاملة عن فترة من فترات الازدهار الفكري والتنوع الأدبي في القيروان(5).

وإنّه لجهد من ابن رشيق يستوجب التقدير والإفادة منه مع أن كتاب العمدة قد غطى عليه وعلى غيره من المؤلفات، وإنّ هذا الكتاب تتناثر فيه الملاحظات النقدية والاختيارات الجيدة للأشعار التي تنم عن ذوق رفيع وحس شعري مرهف.

وأول ما يقف عنده القارئ قبل الأشعار في الأنموذج هي تلك المقدمات القصيرة المختصرة، والتي أراها توقيعات نقدية على شاكلة التوقيعات الشعرية شدتني إليها ولفتت انتباهي، وهي مقدمات ثرية بالملاحظات النقدية تكشف طبيعة التوجه

النقدي عند شاعر ناقد كابن رشيق، وتعيننا على تلمّس طبائع الواقع الأدبي والاجتماعي لتلك الحاضرة.

ولإعطاء الموضوع حقه من الدراسة صنعت جدولا صنفت فيه أغلب ما ورد في الفقرات الأولى التي قدّمت لكل شاعر في الأنموذج وكان هذا الجدول عبارة عن عملية مسح وإحصاء وتصنيف لما ورد في تلك المقدمات عبر الأنموذج بكامله ثم تسجيل الملاحظات على ذلك.

وتضمن الجدول التصنيفي ستة خانات، الأولى خصصتها لشخصية الشاعر ومكانته، والثانية لأخلاقه وعقيدته، والثالثة للغته وألفاظه، والرابعة لمعانيه، والخامسة للجوانب البلاغية، وأخيرا السادسة للموازنات التي يعقدها ابن رشيق مع شعراء آخرين. (أنظر الجدول التصنيفي)(6)

جـدول تصنيفـــي					
شخصيـة الشاعر ومكانتـه	الأخـلاق والعقيـدة	لغـة الشاعر والفاظـه	المعـانـــي	الجوانب البلاغيـة	الموازنـة
-فلان بن فلان –اشتهر باللغة والنحو -شُرف في القيروان–لا غنى للشعراء عنه -يجتمع الناس إليه -له من سائر العلوم حظوظ -خطاط حفاظة -خطه بارع -ذو بديهة -خبير بأيام العرب -موطنه كذا -حاذق -معروف -حلو ذكي ممتاز -من أهل كذا -صاحب أخبار وحكايات -سنة كذا -متفنن -من أسرة علم وفقه–يضرب في كل علم قدح -من أبناء القيروان -نشأ بالبادية -فارس الفرسان -مذكور مشهور -له قدم سابقة -فحل -مقتدر -مشتهر -لطيف مشهور -صاحب خط وقلم	-كان الجامع بيتَه -باطنه نار وظاهره جنة -كثير المواعظ -مولعٌ بالأذية -لقي العلماء في حجه –فاسق زان -كان مستعفا -هجّاء شرير -طيب خلوق مع دين -مدمن على الشراب -عفة وخجول -الكأس في يده -متصدر للقرآن -خبيث اللسان -صاحب حياء -مفرط حب الغلمان -عفيفا كثيرا مستحيا -ذا حيلة وكيد لم يمدح ولم يهج شرير منابش -حسن الأخلاق لطيف –ماجن سكير المعاشرة -شرس الأخلاق -عليه علم شرعي وخلق-لا يفيق من السكر -صاحب موعظة رجلا مستهزئا -متواضعا -يتلاعب -من صالحي الأمة -شريرا خليعا ماجنا وزهادها وعبادها -شديد التواضع يتهم نفسه	-عالما بتنزيل الكلام –يطلب الغريب و الشاذ -لطيف الألفاظ. -ذو ألفاظ حسنة. –يحب الغريب من اللغة. -نقي اللفظ. -سهل الكلام. –لا يبالي بلفظة كيف وقعت. -مليح الكلام. -مليح الشعر. -سهلة لا تكلف فيها. -قليل التكلف. –بلغ الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب. -رشاقة اللفظ. -عريان الظاهر. –علامة بتغريب -مفتوق اللسان. اللفظ. -خفيف الألفاظ. –يحب التصنيع. -سيّال الكلام.–عويص اللغة. -عذب اللفظ. -أنيق الكلام. -فصيح الألفاظ. -يحسن ترتيب الألفاظ. -مضبوط الكلام	-مطبوع رقيق المعاني– حسن الاهتداء -رشيق المعاني -حيور علم المعاني. -صاحب طبع-إذا ركب معنًى أجاده. -مطبوع يلقي الكلام إلقاء. – توليد المعاني. -حلو مذاقة الطبع عذبها. -سديد الطبع. –يبلغ بالرفق والدعة. -مطبوع سافر أوجه المعاني. -سالم الطبع.–يتسلل إلى المعاني بلطافة -جيد الطبع. وسكون. -منقاد الطبع.-حسن المرمى. -ظريف المعاني. –يصيب الأغراض. -لطيف الإشارات. مليح العبارات. -كلامه ثابت المراكز. -لم أر أسهل من الشعر عليه. -له معان عجيبة. -اهتداء حسن. -يتحدر كلامه كالسيل. -تفهم نجواه من فحواه. -رقة المعاني. -قريب المقصد. -قريب المأخذ	-يجانس ويطابق ويستعير. -صاحب تشبيه وبديع. -رائق التشبيه. -صاحب استعارة. -صحيح الاستعارات. -فخم الاستعارة. -يطلب الطباق والتجنيس. -يؤثر الاستعارة. -صاحب بلاغة له أمثال واستعارات. -لا تخلو له قصيدة من بديع. -يطلب البديع. -جيد التشبيه.	-تشبه بأبي تمام وتتبع آثاره. -كأبي الطيب المتنبي. -ينحو منحى أبي هانئ. -ما أحسن ما أخذ قول أبي تمام. -سلك طريق بن أبي ربيعة. -يشبه أبا العتاهية في سهولة الطبع ولغة التركيب. -كان جاهلي المرمى. ينحو نحو الصنوبرية.

فبالنسبة للخانة الأولى خانة النفسية وشخصية الشاعر ومكانته، نجد ابن رشيق يذكر تسمية الشاعر ولقبه وشهرته أو ميزته كإحدى العاهات مثلا، ولم يكن يبالي بشجرة النسب كما يفعل القدامى في طبقات شعرائهم، ولم يسر هنا على نهج أولئك السابقين في تتبع سلسلة الأسماء مع أنه كان قريبا من شعراء أنموذجه وكانوا يعاصرونه وبإمكانه طلب شجرة النسب كاملة، ولكنّ توجهه الأدبي النقدي جعله يكتفي بما يؤدي الغرض.

ففي التسمية كان يقرن أحيانا الشاعر بأحد أقاربه المشهورين لتفادي اللبس، ويذكر كذلك شهرة الرجل بوظيفة أو مهنة أو أي منصب، ومن كلامه "شاعر خبير بأيام العرب" وآخر "نشأ ورّاقا نساخا" ولا يزيد على ذلك، ونجده مخالفا لابن قتيبة (7)مثلا في "الشعر والشعراء" والذي يقف عند أعراق القبيلة والأنساب، فيذكر الأسماء والألقاب والكنى والقبائل والأسر وكل ما يحيط بذلك من قريب أو بعيد، وكأن التوجه في النقد من خلال ذلك كان مرتكز على انتماء الشاعر إلى بيئة معينة وذلك كاف للدلالة على الشاعرية والمقدرة الإبداعية، وفي المقابل نجد ابن رشيق يرى الشاعرية في النص الإبداعي وليس فيما يحيط بالشاعر من بيئة وانتماء وأصل. فتعريف الشاعر عند ابن رشيق يكتفي بهدف بارز ومقصد واضح هو الوقوف عند شخص الشاعر لا غير.

ولا تخفى على الكاتب في هذا المجال مكانة شعرائه والتي تظهر باحتشام واقتضاب لتفسح المجال لما هو أهم عند ابن رشيق ألا وهو الجوانب الأدبية عند شعرائه، وهنا لا مبالغة ولا ثرثرة بل دقة واختصار واقتضاب، فهذا "أشعر أهل زمانه" وذاك "من بيت شعر وكتابة" وآخر من "أسرة علم وفقه" وآخر "شُرّف في القيروان" وهكذا ...، وهي عبارة عن مقاطع مقتضبة لا تثقل كاهل القارئ مع أنّها لها دلالات أدبية واجتماعية مفيدة حيث تُموقِعُ الشاعر في بيئة وفضاءٍ كان يتحرك فيه ويتلون بألوانه فينعكس على شعره ويشكله تشكيلا متميزا.

وفي الباب الثاني ينتقل ابن رشيق إلى عقيدة الشاعر وأخلاقه، وبعد تعاملي مع الأنموذج واستخراج ما يدعم ذلك وجدته يقسم ويصنف الشعراء إلى رجل متدين

ورع وزاهد، وآخر ماجن خليع وهو تصنيف للشعراء لا يمكن إغفاله لأثر تلك العقائد المتباينة على العملية الإبداعية، ومن خلالها يمكن الوقوف على المذاهب والعقائد في حاضرة القيروان التي تجمعت فيها التناقضات. فهذا "شاعر كان الجامع بيته"، وذاك "كثير المواعظ"، وهذا "كان مستعفّا"، وآخر كان "منقطع اللسان عن فضول الكلام"، وإلى جانبه شاعر "من صالحي الأمة وعبادها وزهادها"، وفي المقابل نجد "شاعرا باطنه نار وظاهره جنة"، وآخر "مدمن على الشراب"، وآخر "شرس الأخلاق"، وهذا "لا يفيق من السكر"، وهذه الثنائية تمثل الصورة الحقة للمجتمع القيرواني وفي الوقت نفسه تعطي صورة حقيقية عن رؤية ابن رشيق للشعر فلا فرق بين شاعر ماجن وآخر زاهد فالكل يجتمع بين دفتي "أنموذج الزمان" والأحقية للمبدع الفنان بعيدا عن سلوكه وخلقه، ولولا هذه الرؤية النقدية عند الكاتب لما اجتمع هؤلاء في كتاب واحد.

وهذه في الأخير أمانة علمية اتصف بها ابن رشيق في نقله لحقيقة المجتمع الثقافي في حاضرة القيروان دون انتقائية مبنية على اعتقاد أو مذهب معيّن.

ولا يطول على القارئ الزمن حتى يصل به الكاتب إلى مبتغاه ويدخل به باب الفن حيث الشكل واللغة واللفظة، فيقف عندها ابن رشيق واصفا إياها بأحسن الأوصاف وأزهاها تقع موقعا حسنا في الأذن وكأنه يبدع ألفاظا لوصف ألفاظ الشعراء ولغتهم فهذه "ألفاظ حسنة"، وتلك "نقية"، وثالثة "مليحة"، وأخرى فيها "رشاقة"، وذاك شاعر "خفيف الألفاظ"، وهذا "عذب اللفظ"، وآخر "سيال الألفاظ"، وإلى جانبه شاعر "مفتوق اللسان".

ويقسم ألفاظ شعرائه إلى ألفاظ سهلة لا تكلف فيها، وهذه هي السمة الغالبة على أغلب منتخباته الشعرية إلا في بعض الأماكن التي نجده يقول فيها "عويص اللغة"، "علامة بتغريب اللفظ"، "يحب الغريب من اللغة"، وهذا يدل على أن ابن رشيق ينحو نحو رشاقة اللفظ وسهولة مأخذه وخفته وحلاوته لدى الشاعر والناقد، وهي من الخصائص المميزة لشعر الحضارة والتمدن البعيدة عن البداوة، عاكسة للميزات الحضارية للقيروان آنذاك.

وإن اللفظ في العملية الإبداعية لم يظهر في الكتب النقدية القديمة والترجمات وحده بل كان مقرونا دائما بالمعنى، وصاحب الكتاب يقول في عمدته بأن اللفظ «...جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوّته... »، (8) وأراء ابن رشيق في أنموذجه لا تغفل ذلك الارتباط وتؤكد على أهميته في العملية الشعرية.

وقد أفرد للروح والمعاني في كتابه ملاحظات عديدة ومتنوعة جمعناها في حيز المعاني، هذا الحقل الذي ركز فيه على الطبع لدى الشعراء هؤلاء الذين يتسللون إلى المعاني تسللا ويحسنون ذلك أيما إحسان فهذا "مطبوع رقيق المعاني"، وآخر "سديد الطبع"، وثالث "مطبوع سافر أوجه المعاني"، وآخر "سالم الطبع"، وشاعر آخر "جيد الطبع". وهذا الطبع عند الشعراء يتيح لهم الاهتداء إلى أحسن المعاني وأجودها ويقدمها ابن رشيق بأسلوب يمكننا تشكيل معجم نقدي خاص له نكهة مميزة كوصفها بـ(الرقة، والرشاقة، والظُرف، الملاحقة والسهولة، والعجب، والاهتداء الحسن، وتحدرها كالسيل، وقرب المأخذ والمقصد، وجودة ركوب المعنى، ويبلغها بالرفق والدعة، واللطافة والتسلل إليها ...)

وهذه صفات ومصطلحات تدل على توجه ودعوة الناقد إلى ضرورة تحقق الرقة في المعنى، وتغليب الشعر المطبوع على التصنع فيه، فيجتمع في أنموذجه الشعر النموذجي والشعراء المثاليون، باجتماع اللفظ السهل وحلاوته مع رقة المعاني ولطافتها، فيلتقي اللفظ بالمعنى في تأدية الغرض الشعري السامي بعيدا عن التكلف والإغراب.

وبعد المعاني يصل الكاتب إلى الجوانب البلاغية لدى الشعراء فتجده يعالجها بمنطق خاص فيصفها بالجودة والفخامة والصحّة، فهذا "صحيح الاستعارة"، وذاك "جيد التشبيه"، وآخر "يجانس ويطابق ويستعير"..، ويدعم هذا في عمدته بقوله «... الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في جملة الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها...». (9)

وهي سمات من سمات الشعر الجيد الذي يدعو إليه ابن رشيق، ثم يخلص في نهاية المطاف إلى الموازنة والمقارنة بين الشعراء من الأنموذج وسابقيهم من الشعراء العرب، فهذا "تشبه بأبي تمام"، وذاك "فعل كأبي الطيب"، وآخر "أحسن ما أخذ قول أبي تمام"، وهذا "يشبه أبا العتاهية في سهولة الطبع"، وذاك "جاهلية المرسى" ..وهكذا.

وهي مقارنة تربط الآخر بالأول والمتأخر بالمتقدم وتشير إلى إفادة الشعراء من سابقيهم والتأثر بهم وخاصة الشعراء البارزين، وهذه المقارنة تكشف تلك العلاقات الثقافية بين المغاربة وإخوانهم المشارقة وتؤكد على انتمائهم إلى فلك ثقافي واحد، وتقف عند طبيعة العملية الإبداعية البناءة المستفيدة من تجارب الآخرين، ولها أهمية كبرى في مقارنة اللاحق بالسابق لاكتشاف الجديد والابتكار والتميّز.

ومن خلال هذا الجهد الذي بذله ابن رشيق في أنموذجه بالأسلوب الذي اختاره لنفسه، وخاصة في مقدمات الترجمات نجد أننا حققنا عدة أشياء ونذكر منها أنه بإمكان القارئ أن يشكل صورة المجتمع المغربي والقيرواني بالخصوص من خلال تلك الصور الجزئية المبثوثة في الأنموذج، وعلى رأسها الصورة الاجتماعية لتلك البيئة وأولئك المبدعين، فهي بيئة حضرية مدنية تتنوع فيها الحرف والمهن والوظائف، ينقسم فيها الناس إلى متدينين ورعين وخلعا ء ماجنين فمن شعر الزهد والوعظ إلى شعر الخلاعة والغلمان، ومن شاعر يموت سكرانا إلى آخر صاحب حياء وغض طرف.

وفي الكتاب من كان أنموذجا في الخلق الحسن والسلوك القويم وقابله أنموذج آخر في الخلاعة والسكر إلى درجة الموت بطريقة مثالية، مثل ما حدث للفراسي الذي سقط من السطح وهو سكران فقتل.

ومن هنا كانت منتخبات ابن رشيق منسجمة نوعا ما مع تسمية الكتاب وكأن عنوانه احتوى النص واختصره هذا النص الذي تفرقت أجزاؤه في مقدمات التراجم.

والصورة الثانية عن هذه البيئة القيروانية هي تلك الصورة الأدبية والنقدية التي تكشف طبيعة التوجه الأدبي في القيروان والمغرب بصفة عامة، حيث اهتمام السلاطين بالشعر والشعراء، وتقريبهم ورعايتهم، وزاد عدد شعراء بلاط المعز على المائة شاعر، وهذا ما أثرى الحياة الثقافية، وإن الرقّة التي تحدث عنها الكاتب في الشعر وتوليد المعاني والتميز عن المشارقة لأنها آتية ونابعة من الأجواء النقية التي وفّرها السلطان والواقع في تلك البلاد، فليست الموهبة وحدها القادرة على تقديم تلك الجودة، وهي صورة في الأخير تكشف عن نوع من التآزر بين الثقافي والسياسي، وما حرقة الشعراء والأدباء وبكاؤهم على سقوط القيروان إلا دليل على بكائهم على أنفسهم وحظهم التعيس وتضييعهم لذلك الوضع الذي يحسدون عليه في حاضرة من أرقى حواضر الأمة العربية.

وفي الأخير إن ابن رشيق في عمله هذا لم يكن مؤرخا متخصصا للشعراء حتى نبحث في كتابه عن ألقابهم وأنسابهم وحيواتهم بالتفصيل بل كان مختصرا مقتصرا على ما عرف به الشاعر من اسم ولقب مائلا إلى تعريف الشاعر في شخصه وذاته وليس فيما يربطه بالأسلاف، لأن هدفه الأساس هو خصوصية شعره ثم إثبات نماذج منها، وقد ابتعد من خلال ذلك عن السجع كسجع ابن المعتز (10) في طبقاته، والزخرفة الأسلوبية لأنها لم تكن المقصد ويبدو لي أن هذه الطريقة هي من أساليب المغاربة في الكتابة حينما يقصدون الهدف مباشرة ويستعجلون الوصول إلى المرمى العلمي والنقدي دون الوقوع في التعرجات الأسلوبية وذاك ما جعل مقدمات التراجم عند ابن رشيق قصيرة مقتضبة وكأنها جسر قصير يوصلك مباشرة إلى النص الشعري.

وهذه خاصية ترجع إلى توجهه النقدي و اهتماماتهم الخاصة فالمترجمون يختلفون نتيجة شخصياتهم المختلفة و التوجه الغالب على كل واحد منهم .

و لكن مع ذلك يمكن الإفادة منها من خلال آرائه النقدية التي تعين على التأريخ للأدباء(11) و هذا لا ينقص من قيمة التراجم بل كانت و لا تزال من عوامل إثراء و إغناء الحركة الأدبية و النقدية .

الإحـالات

1–أنموذج الزمان في شعراء القيروان . ابن رشيق القيرواني .تح .محمد العروسي المطوي+بشير البكوش .الدار التونسية و المؤسسة الوطنية الجزائرية 1986 . ص24–25

2–محاضرات في الشعر المغربي القديم .عبد العزيز نبوي د.م.ج الجزائر1983ص142–143

3–المعجم العربي الأساسي .ألسكو . 1989

4–أنموذج الزمان .المصدر السابق .ص 25

5–الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج.محمد الطمار .ش.و.ن.ت .الجزائر 1983ص124

6–أنموذج الزمان .المصدر السابق .

7–الشعر و الشعراء ابن قتيبة–تح–أحمد شاكر دار المعارف مصر 1982

8–العمدة –ابن رشيق القيرواني الجزء 2 دار الجيل بيروت ط5 1981 ص 124

9–العمدة –المصدر نفسه ج1 ص 268

10–طبقات الشعراء.ابن المعتز . تح عبد الستار فراج.ط3 دار المعارف مصر1976

11–مصادر التراث في كتب التراجم الأدبية فخر الدين عامر عالم الكتب القاهرة 2000 ص 279 –280